الحجاج: التوطئة والمفهوم والمجالاته التقاطعية

توطئة:

أضحى فنُ الحجاجِ في وقتنا الحاضر قِبْلَة اهتمام الدارسين، في مختلف الفنون والتخصصات؛ وذلك بالنظر إلى قدرته على مقاربة مختلف الخطابات العلمية والإنسانية والثقافية، حتى أصبح عصرنا الحالي حقيقا بأن يوصف بعصر الحجاج والجدال والإقناع والتأثير والحوار، خاصةً مع انتعاش شارةِ الديمقراطية كعنوان حُكم متميّز، وتطور وسائل الإعلام المرافقة لهذا الخيار، الشيء الذي ولّدَ اشتداد وطيس الخلافات، وأذكى ضرام الحوارات، ما جَعَلَ الحاجةَ ماسةً إلى الحجاج والإقناع، والجدال والتأثير، لغرض المغالبة والمحاججة، وإبداء الخصم في وضع الضعيف قليل الحيلة، تعوزه قوة الحجة، وسلطان الدليل القاطع، كون الحجاجِ في الأصلِ سبيلَ العقل والمنطق والحوار البنّاء، والجدال الحسن، والاختلاف الحميد. كما أنّه وجه من وجوه التداولية الحديثة في تحليل الخطابات.

1. **تعريف الحجاج**:

1.أ. **لغــــــةً**: تكاد تُجمع قواميس اللغة العربية أنّ مادة (ح ج ج) لا تخرج عن الدائرة الدلالية المشتملة على معاني (المغالبة، والتنازع، والجدل، واستعمال الدليل والبرهان ...)، يقول ابن منظور في (لسان العرب): « حاجَجْتُه أُحاجُّه حِجاجاً ومُحاجَّةً حتى حَجَجْتُه أَي غَلَبْتُه بالحُجَجِ التي أَدْلَيْتُ بها ..... والحُجَّة البُرْهان، وقيل الحُجَّة ما دُوفِعَ به الخصم وقال الأَزهري الحُجَّة الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة وهو رجل مِحْجاجٌ أَي جَدِلٌ ... وفي حديث الدجال إن يَخْرُجْ وأَنا فيكم فأَنا حَجِيجُه أَي مُحاجُّهُ ومُغالِبُه بإِظهار الحُجَّة عليه. والحُجَّةُ الدليل والبرهان يقال حاجَجْتُه فأَنا مُحاجٌّ وحَجِيجٌ فَعِيل بمعنى فاعل ومنه حديث معاوية فَجَعَلْتُ أَحُجُّ خَصْمِي أَي أَغْلِبُه بالحُجَّة»[1].

ويقول أيضا مثبتا أنّ الحِجاج مضربُه التخاصم « والتَّحاجُّ التَّخاصُم وجمع الحُجَّةِ حُجَجٌ وحِجاجٌ وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً نازعه الحُجَّةَ وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً غلبه على حُجَّتِه. وفي الحديث فَحَجَّ آدمُ موسى أَي غَلَبَه بالحُجَّة، واحْتَجَّ بالشيءِ اتخذه حُجَّة »[2].

وينقل عن الأزهري سبب تسمية الحجة حجةً؛ كونها تعني القصد، وإنما يُرام من توظيفها قصدُها وتقصّدها، يقول: « قال الأَزهري إِنما سميت حُجَّة لأَنها تُحَجُّ أَي تقتصد لأَن القصد لها وإِليها، وكذلك مَحَجَّة الطريق هي المَقْصِدُ والمَسْلَكُ »[3].

(1)
(2)
(3)

ويدعم هذا الربط بين معنى الحجة والقصد ابن فارس في قوله: « ومن الباب المحجّة، وهي جادّة الطريق. قال:

ألا بلِّغَا عنّي حُريثا رسالةً ♦ ♦ فإنّك عن قَصْدِ المحجّة أنكبُ

وممكن أن تكون الحجة مشتقةً من هذا؛ لأنّها تُقصد، أو بها يُقْصَد الحقّ المطلوب، يقال: حاججتُ فلانًا فحججتُه أي غلبته بالحُجة، وذلك الظفرُ يكون عند الخصومة، والجمع الحُجَج، والمصدر الحِجَاج »[1].

ويلخّص الفيروزبادي الحِجاج في الدلالة على البرهان والجدل، فيقول: « ... بالضم [الحُجّة]: البرهان، والمِحْجاج: الجَدِل »[2].

ما يمكن ملاحظته من هذه التعريفات أنّ الحجاج مصدر للحجة، والحجة هي البرهان والدليل، وهي القصد الذي يكون إليها وبها لإثبات أمر أو إبطاله، كما أن بيئة الحجاج هي المغالبة والتخاصم، وإطارها التواصل والجدل، يقابلها في الفرنسية مصطلح (L'ARGUMENTATION)

1.ب. اصطلاحا:

قبل تعريف الحجاج من حيث المصطلح يجب أنْ نشير في البداية إلى أنّ تعريفه عائمٌ تتقاطع فيه علوم عديدة، وفنون متنوعة، فهو مصطلح حاضرٌ في مجال الفلسفة والمنطق، وكذا في مجال البلاغة والمقاربات اللسانية والخطابية والدراسات القانونية ... [3]، ويقرّر عبد الله صولة تشعب مجالات استعمال الحجاج في قوله: « إذ أنّنا نجد بعضهم يرى أنّ الحجاج في الدراسات الحجاجية على ضربين أحدهما: أنت فيه لا تخرج عن مجال المنطق، وبذلك يكون مرادفا للبرهان والاستدلال، وضرب هو واسع المجال لانعقاد الأمر فيه على دراسة مجمل التقنيات البيانية الباعثة على إذعان السامع أو القارئ »[4].

كما يجب التنبيه إلى أنّ للحجاج مفهومين : مفهومًا عامًّا وآخرَ خاصًّا، أمّا المفهوم العام للحجاج فيطلق على أيّ خطاب تواصلي، بحيث إنّ كلّ حجاج هو تواصل، وكلّ تواصل يستعمل آلية الحجاج؛ من منطلق أنّه « لا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج من غير تواصل باللسان ... »[5]، وحَدَثَ أنْ « توسّع معنى (الحجة) فصار يدلّ لا على الإثبات فحسب، بل تعدّاه إلى الدلالة على مجموع قول القائل، إنْ معترضًا أو مجيبًا، وعلى ما أُضمر في هذا القول ... »[6].

(1)
(2)
(3)
(4)
(5)
(6)

أمّا المفهوم الخاص فيطلق على الخطاب الذي يتوافر على الحجة أو الحجج بوصفها وسيلة إقناع ومغالبة وتأثير ويمكن سوق بعض التعاريف المتعلقة بالمفهوم الخاص للحجاج اصطلاحا، ومن المشهور منها:

ما جاء في موسوعة لالاند الفلسفية أنّ الحجاج هو: « طريقة عرض الحجج وترتيبها، أو هو سرد الحجج تنزع كلها إلى الخلاصة ذاتها »[1]؛ بمعنى أنّ الحجاج من الناحية الفلسفية يُعنى بآليات عرض الحجج وترتيبها وسردها.

ويُعرّف الحجاج كذلك بأنه: « جنسٌ خاصٌ من الخطاب، يُبنى على قضية أو فرضية خلافية يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا قاصدا إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية »[2]، ما يُفهم من هذا التعريف أنّ الخلاف هو الباعث على حضور الحجاج، وهو المتحكم في شكل الحجاج ومجاله الحيوي الذي يتفاعل فيه. كما يُحدّ الحجاج من قِبَلِ طه عبد الرحمان بـ« **أنّه كل منطوق به موجّهٍ إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة، يحقّ له الاعتراض عليها** »[3]؛ وذلك من منطلق أنّه « لا مُخاطِب (بكسر الطاء) من غير أن تكون له وظيفة (المُدَّعِي)، ولا مخاطَب (بفتح الطاء) من غير أن تكون له وظيفة (المُعتَرِض) »[4].

ومن التعاريف الأخرى للحجاج تعريفُ الأرسطيين الجُدد أو أصحاب البلاغة الحديثة (شايم بيرلمان، ألبريخت تيتيكا، ميشال مايير...)؛ حيث يعرّفون الحجاج بأنه: « طائفةٌ من تقنيات الخطاب التي تقصد استمالة المتلقين إلى القضايا التي تُعرض عليهم، أو زيادة درجات تلك الاستمالة »[5]، بمعنى أن الاستعارة أو الكناية أو التشبيه أو المجاز -مثلا- هي من التقنيات الخطابية التي تُتَقَصَّدُ للتأثير في المتلقي، وتعمل على استمالته إلى قضية ما، أو تعمل على زيادة تلك الاستمالة بدرجة ما.

ومن التعاريف الأخرى للحجاج تعريف أصحاب الحجاج اللغوي (أزفالد ديكرو)؛ حيث يعرّفها أحد أبرز المهتمين بهذا النوع من الحجاج (أبو بكر العزاوي) بقوله: « إنّ الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدّية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها بمثابة الحجج اللغوية وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تُستنتجُ منها »[6]، بمعنى أنّ الحجاج هو عبارة عن متوالية قولية إنجازية تتألف من حجج لغوية ونتائج؛ ومن أمثلة ذلك قولك: تعبتُ إذن سأستريح// فالقول: تعبت (حجة قولية)، والقول: سأستريح (نتيجة).

(1)
(2)
(3)
(4)
(5)
(6)

عموما فما يمكننا استنتاجه من هذا العرض الوصفي لتعاريف الحجاج هو أنّ الحجاج هو: **كلّ منطوق يعرض قضيةً ما بهدف استمالة المخاطَب والتأثير فيه، بواسطة طائفة من تقنيات الخطاب في شكل إنجاز متواليات قولية تجمع بين الحجج والنتائج المتمخضة عنها.**

2. المجالات المفاهيمية للحجاج:

يتقاطع الحجاج مع عديد الفهوم والمصطلحات والمجالات اتفاقا واختلافا، ومن تلك المجالات: الحجاج والجدل، والحجاج والخطابة، والحجاج والبرهان والمنطق، والحجاج والحوار، الحجاج والإقناع ... الخ :

2. أ. الحجاج والجدل:

يترادف اللفظان في لسان العرب؛ فعندما يُطلق لفظ الحجاج يُفهم منه الجدل، وفي هذا يقول ابن منظور: « وهو رجل مِحْجاجٌ أَي جَدِلٌ ... وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً نازعه الحُجَّةَ »[1]، وكذلك لفظ الجَدَل فهو مقابلة حجة بحجة كما الحجاج، وفي التعريف اللغوي للجدل يقول ابن منظور: « الجَدَلُ: اللّدَدُ في الخصومة والقدرة عليها، وقد جَادله جِدالا ومُجَادلةً، ورجلُ جَدِل ومِجدلٌ ومجدال: شديد الجدل، ... والجدلُ: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة ... »[2]، وعليه فجامع الحجاج والجدل هي المخاصمة.

أمّا عن الفرق الدقيق الذي يمكن رصده بين المعنيين فتتضح من جهة توظيفهما في القرآن الكريم؛ وذلك أنّ الجدل أعمّ من الحجاج، من حيث إنّ الجدل وُظّف محمودا ومذموما، أمّا الحجاج فوُظّف مذموما فقط، ومصداق ذلك: أنّ الجدل وُظّف محمودا في الأمر بالجدال بالتي هي أحسن في قوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [النحل/ 125].

ووُظِّف الجدال مذموما من جهتين: جهة الجدال بغير علم، في قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ**﴾ [الحج/ 08]، ومن جهة الجدال المنتصر للباطل على حساب الحق، في قوله تعالى: ﴿ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا**﴾ [الكهف/56]. أمّا الحجاج فقد ذكر مذموما في القرآن الكريم، وفي ذلك يقول محمد الطاهر بن عاشور: « مع أنّ حاجّ لا يُستعمل غالبا إلا في معنى المخاصمة، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ** ﴾ [غافر/47]مع قوله: ﴿ **إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**﴾ [ص/64] وأنّ الأغلب أنه يفيد الخصام بباطل، قال تعالى: ﴿**وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ** ﴾ [الأنعام/80] وقال: ﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّه**﴾ [آل عمران/20]والآيات كثيرة، فمعنى ﴿ **الَّذِي حَاجَّ**

---

(1)

(2)

إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة/ 257] أنه خاصمه خصاما باطلا في شأن صفات الله رب إبراهيم »[1]، والمعنى من خلال التوظيف القرآني –حسب ابن عاشور- أنّ الإنسان متى ما كان محجاجا يصدق عليه المجادل، وذلك لأن الجدال قائم على أساس الحجة، أو أنّ عدّتَه الحجة أو الحجاج، وأنّ الحجاج يظهر ويتجلى في الجدال أو عملية المجادلة، والتي تعني المخاصمة والمغالبة. وبرهان تعالقهما أنّ تعريف أحدهما مشتمل على حضور الآخر ضرورة، فيعرّف الجدل مثلا بأنّه: « عبارة عن قدرة كلامية، وبراعة حجاجية »[2]، أما تعريف الحجاج فسبق وأن عرضناه.

والملاحظ على كتابات علوم القرآن والفقه عموما استعمالهم للفظتي الحجاج والجدل مترادفتين، ومن ذلك كتاب (البرهان) للزركشي، وكتاب (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي، وغيرهما ... .

كما أنّ الجدل – وإنْ رَادَفَ الحجاجَ - مُلزِمٌ، أمّا الحجاج فغير ملزم؛ وذلك أنّ الغرضَ من الجدل: « إلزامُ الخصم والتغلّب عليه في مقام الاستدلال »[3]، في حين أنّ الحجاج يتّسم بصفة المرونة غير الملزمة، فيكتسب به المخاطَب حرية تقبُّل الحجة أو الاعتراض عليها.

أمّا الدراسات العربية الحديثة فمنها ما حافظ على الطابع الترادفي لكلّ من الجدل والحجاج؛ انطلاقا من أنّ الحجاج يتخذ من المناظرة بنيةً معرفية وخطابية، والجدل آلية عقلية إقناعية ملزمة تظهر في الطابع المناظراتي للتحاور، وبرهان ذلك كتاب الهادي حمو (مواقف الحجاج والجدل في القرآن الكريم)، ودليل هذا التوجّه أيضا محافظة طه عبد الرحمان على الطابع الجدلي في تعريفه للحجاج، فيقول: « وحدُّ (الحجاج) أنّه فعالية تداولية جدلية »[4]، ويوضّح الفعالية الجدلية في قوله: « وهو أيضا **جدلي** لأنّ هدفه إقناعي قائمٌ بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة »[5].

غير أنّه ثمة من الدارسين المحدثين من يتجاوز القول بالترادف إلى الحكم بسعة الحجاج إذا ما قيس بالجدل، وأنّ القول بالترادف هو تضييق لأفق الحجاج؛ ودليل ذلك ما ذكره عبد الله صوله في قوله: « كلّ جدلٍ حجاج، وليس كل حجاج جدل »[6]، وتفصيل ذلك يتجلى في قوله: « إنّ اعتبار القدماء وبعض المحدثين الحجاج مرادفا للجدل ومراوحتهم بينهما في الاستعمال واستخدامهم أحدهما معطوفا على الآخر باعتبارهما مترادفين، من شأنه أن يضيق مجال (الحجاج) ويغرقه في (الجدل) من حيث هو صناعة منطقية ... والحال أنّ الحجاج أوسع من الجدل »[7]، ومدار سعة (الحجاج) هو تجاوزه للصناعة المنطقية التي يتسم بها (الجدل) إلى التأثير العاطفي، والاستثارة الخطابية.

(1)
(2)
(3)
(4)
(5)
(6)
(7)

2. ب. **الحجاج والخطابة:**

يرى أرسطو أنّ الجدل والخطابة قوتان لإنتاج الحُجج[1]، غير أنّ الحجج الجدلية ليست من نفس نوع الحجج الخطابية، وعليه يمكن أنّ نستنتج أنّ الحجاج نوعان: حجاج جدلي، وحجاج خطابي.

أمّا الحجاج الجدلي منه فهو من قبيل ما عرضه أرسطو في كتابه (الطوبيقا Topiques)؛ ومعناه مواضع القول، ومداره مناقشة الآراء مناقشة نظرية غايتها التأثير العقلي المجرّد، ويقابله في تراثنا الإسلامي مناظرات (علم الكلام)، والمناظرات الفقهية، التي تسعى إلى إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه، إيرادا عقليا مجرّدا عن أي تأثير نفسي أو استثارة عاطفية [2]. وهو حجاج موجود في القرآن الكريم، بل يُعدّ من بدائعه، ويُعرف بدراسته تحت عناوين (جدل القرآن) و(المذهب الكلامي في القرآن).

أمّا الحجاج **الخطابي** فهو من قبيل ما عرضه أرسطو في كتابه (الخطابة أو الريطوريقا Rhéthorique) ، ومداره تجاوز التأثير النظري العقلي إلى التأثير العاطفي وإثارة المشاعر والانفعالات، وهو حجاج موجّه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة، ومقامات مخصوصة، وغايته إرضاء الجمهور واستمالته بأي وسيلة كانت، بما في ذلك مغالطته وخداعه وإيهامه بصحة الواقع [3]، وإذا انخرط الحجاج الخطابي في هذا المدرج فهو – حسب أرسطو- يجمع بالشبه بين الجدل من جهة وبين التفكير السفسطائي من جهة أخرى [4]. ولمّا كان مفهوم الحجاج الخطابي بهذه الموصفات عند الأرسطيين الأوائل (الخطابة اليونانية) فقد أدخلَ الخطابَ في مضمارِ المناورة والإبصارِ بالفرصةِ مهما كلفه الأمر في سبيلها، من تحسين للقبيح وتقبيح للحسن، الشيء الذي منع دارسي القرآن الكريم من القدماء أن ينظروا إليه من زاوية هذا الصنف البلاغي للخطاب؛ لما يتّصف به من تجاوزات عقدية مع الذات الإلهية، لذلك كان تناول دارسي القرآن الكريم للبلاغة التي تتعمّق في دراسة اللغة نظامًا وطريقة بناء وتنسيق، ولم يتوقف هذا الإحجام عن هذا النوع من الخطاب البلاغي اليوناني على الدارسين العرب بل تعداه إلى الغرب، عن طريق الأرسطيين الجدد أو البلاغيين الجدد، من أمثال شايم برلمان (Chaim perelman) ولوسي أولبرخت تيتيكا (Lucie olbrecths tyteca) . كما سنرى . .

2. ج. **الحجاج والبرهان:**

البرهان Démonstration يلتقي مع الحجاج في كونهما يتخذان من الحجة وسيلة لهما، وموضوع التواصل فيهما، ودليل ذلك تعريف البرهان لغةً، فقد جاء في كتاب العين: « البرهان: بيان الحجة وإيضاحها »[5]، وجاء في المعجم

(1)
(2)
(3)
(4)
(5)

الوسـيط كذلك تفصـيلٌ في آلياتِ البرهنةِ ومكوّناتها، من خلال: « البرهان: الحجة الفاصـلة البيّنة. وعند (المنطقيين): قياسٌ مؤلّفٌ من مقدماتٍ يقينيةٍ، وعند (الرياضيين): ما يُثبِّتُ قضيةً من مقدماتٍ مسلّمٍ بها، و(ج) براهين »[1].

وإذا كان الحجاج الجدلي يتخذ من الإقناع العقلي سـبيلا وغايةً، وإذا كان الحجاج الخطابي يتجاوز الإقناع العقلي إلى الاستمالة العاطفية، وشحن المشاعر وتحريكها، فإن البرهان ألصق بالمنطق الصوري أكثر منه صلةً بالحجاج اللغوي، وهو كذلك أشـدّ اتصـالا بالصـرامة المنطقية من الجدل؛ من جهة أنّ الجدل ينطلق في أغلب منطلقاته من مقدمات مشهورة، وليست مقدمات سابقة ضرورية، في حين أنّ البرهان ينطلق من مقدمات دقيقة ومسلَّم بها بوصفها سابقةً وضروريةً، ولا تعتمد على ما هو مشهور إذا لم تقم عليه شواهد السبق والتسليم بصحتها وصدقها، كما أنّه يختلف مع الحجاج من حيث إنّ الحجاج يتحقق في اللغات الطبيعية، وطابعه احتمالي قابل للاعتراض، ونتائجه نسبية غير مطلقة، أمّا البرهان أو البرهنة فتتحقق في اللغات الشـكلية أو الاصـطناعية أو الرمزية، وطابعها قطعي غير احتمالي، وغير قابل للاعتراض، ونتائجها مطلقة غير نسبية وغير احتمالية.

وما يمكن تحقيقه في هذا الموضع هو أنّ الحجاج والبرهان (الاستنباط) كليهما يُعَدّان استدلالا؛ من جهة أنّها يبتغيان الوصول إلى نتيجة ما عن طريق أدلّة أو مقدمات سابقة، وتسمى هذه المقدمات أو الأدلة في الحجاج حُججًا، وتسمى في البرهان أو الاستنباط معطيات، بيد أنّ الاستدلال الحجاجي غير الاستدلال البرهاني المنطقي، من حيث إنّ الحجاج هو تلك العلاقة التي تربط بين المقدمات (الحجج) والنتيجة، وتلك الحجج تندرج في فئة حجاجية متكاملة ومختلفة من حيث درجة قوتها، كما تكون تلك الحجة قابلةً للدحض، ومُحدّدة لفئة حجاجية مضادة، كما أنّ النتيجة تحدّدُ بدورها نتيجةً مضـادةً [2]، وعليه فالخطاب الحجاجي يُنشـأ في مقابل خطاب مضـاد، و« هذه الخاصـية المتمثلة في القابلية للدحض من أهم الخصائص الجوهرية التي تميّز الحجاج عن البرهنة، أو من الاستنباط، اللذين يقدّمان في نسق معطى بكونهما غير قابلين للدحض. من هنا أيضـا تختلف العلاقة الحجاجية عن المنطقية »[3]، وذلك أنّ العلاقة المنطقية ليست علاقة بلاغية تقبل الدخول في مناقشة، يكون بمقتضاها الاعتراض والدحض اللذين يتصفان بنسبتهما إلى ما هو احتمالي أو نسـبي، أمّا البرهنة المنطقية فلا تقبل الدحض أو الاعتراض، بالنظر إلى قطعية مقدماتها وحتمية نتيجتها؛ ومثال الحجاج والبرهنة[4] القول في الحجاج : انخفض ميزان الحرارة ========== إذن سينزل المطر

فهو استنتاج احتمالي يقبل الدحض والاعتراض

والقول في البرهنة: كلّ لغويٍّ عالم --------- زيدٌ لغوي ========== زيدٌ عالمٌ.

فهو استنباط حتمي ضروري لا قوة منطقية تدفعه.

---

(1)
(2)
(3)
(4)

وقد حاول كل من شايم بيرلمان Perelman وتيتكا Tyteca وضع الخصائص المميزة للحجاج التي تفرقها عن البرهنة، وقد لخصاها في خمسة مميزات رئيسة: « ...

1. يتوجّه إلى مستمع.
2. يعبّر عنه بلغة طبيعية.
3. مسلّماته لا تعدو أن تكون احتمالية.
4. لا يفتقر تقدّمه (تناميه) إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.
5. ليست نتائجه (خلاصاته) ملزمة. » [1].

ويمكن تلخيص الفروق الحاصلة بين مفهومي الاستدلال البرهاني والحجاج في الجدول التالي[2]:

الاستدلال البرهاني Démonstration	الحجاج Argumentation
1. منطق صوري لا يقبل اللبس (برهنة تحليلية)	- مسار حواري Dialogique يستخدم أحكام القيمة (البرهنة الجدلية)
2. مساره عقلي يخاطب الإدراك	- هدفه الإقناع على أسس عقلية
3. برهنة لا شخصية وهي ملزمة	- برهنة شخصية (موجهة إلى طرف ما) وهي ليست ملزمة
4. مجاله اليقينيات	- مجاله الرأي والممكن (العُرْف)
5. حجة واحدة يمكن أن تكون باتّة قاطعة	- الحجج تكون فيه كثيرة نسبيا
6. جمهوره كوني	- جمهوره خاص لكن يُقصد من خلاله جمهور كوني

(1)
(2)

وعليه فالبرهان والحجاج كلاهما يتخذان من الحجة موضــوعا وآليةَ تواصــل، غير أنّ البرهان منطقي والحجاج بلاغي، يدخل المنطق كوجهٍ من وجوهِه في بعض اســتعمالاته، واجتماع الحجاج بالجدل أكثر من البرهنة المنطقية بجامع مقام المخاصمة والنقاش.

2. د. **الحجاج والحوار:**

الحوار هو قناة الحجاج ومظهره التواصــلي، و« الحَوْرُ: رجوع الشــيء عن الشــيء ... وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلامَ ... »[3]، وعليه فالحوار هو مراجعة الكلام، وكذلك الحجاجُ هو مراجعةُ الحجة بالحجة، في إطارٍ تفاعليٍ مفعمٍ بالمحاججةِ بغرض الإقناع، وانطلاقا من هذا يتداخل الحجاج مع الحوار كتماهي الجوهر مع المظهر الذي يُبرزه، ويوضّح طه عبد الرحمان حقيقة الحوار في المســلّمة الحوارية التي تندرج تحت مســلّمات القياس الخطابية والتي يقوم على مقتضــياتها مفهوم الحجاج، من خلال قوله: « مقتضى هذه المسلّمة أنّه لا كلامَ مفيدَ إلا بين اثنين، لكل منهما مقامان هما: مقام المتكلم ومقام المســتمع، ولكلّ مقام وظيفتان هما: وظيفة المُعتقِد ووظيفة المُنتقِد، بحيث إذا كان المتكلّم مُعتقِدا كان المستمع منتقِدا، وإذا كان المستمع معتقِدا كان المتكلم منتقِدا »[1]، وغرض كل مقامٍ من هذين الوظيفتين هو جلبُ الاعتقاد ودرءُ الانتقاد.

ونتيجة ما ســبق تتمثل في أنّ صــلة الحجاج بالحوار وثيقة جدًا، وإذا كان مجال الحجاج ما يوصــف بالمُحتمل، فإنّ ميدانه الضــروري هو الحوار أو التحاور، وينبني الحجاج على الخلاف والاختلاف بين الباث والمتلقي، وتتجلى حجّية هذا الخلاف في الحوار. فالحوار هو القناة التي تحمل الحجاج من الباث إلى المتلقي في إطار تواصــلي، يتفاعل فيه المتكلم المُعتقِد مع المتلقي المُنتقِد، أو المتلقي المُعتقِد مع المتكلم المُنتقِد، لغرض عام بتجسد في جلب الاعتقاد ودرء الانتقاد.

2. د. **الحجاج والإقناع:**

الإقناع من مادة (قَ نِ عَ)؛ بمعنى رَضِيَ، جاء في لسان العرب: « قَنِعَ بنفسه قَنَعًا وقَنَاعةً: رَضِيَ...»[2]، والإقناعُ هو الرفعُ المناسب للانتفاع بالشيء؛ « الإقناع: أن تضعَ الناقةُ عُثْنُونَها في الماء وترفع رأسها قليلا إلى الماء لتجذبَه اجتذابا ... »[3]، والحجاج هو مَحْمَلُ الحجّة المَرْضِيةِ في تركيبها وبنيتها من حيث القوة والمناسبة، لتحقّق مأرب صاحبها (المتكلم) في التأثير في المتلقي الذي يُراد له الرّضــى بمُقتضــى منطوق المُحاجج (المتكلّم) فعلا أو اعتقادا ، والحجاج هو الدليل المرفوع رفعًا مناسبا إلى المتلقي قصد التأثير فيه، وحمله على تنفيذ مقتضى المنطوق المُوَجَّه بالحجاج فعلا أو اعتقادا.

أمّا المعنى الاصطلاحي للإقناع فقد حدّه حازم القرطاجني في كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) بقــــوله: « هو حمل النفوس على فعل شيءٍ أو اعتقاده، أو التخلي عن فعله أو اعتقاده »[4]، وللربط بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، يمكن

---

(3)
(1)
(2)
(3)
(4)

القول إنّ الإقناع هو عبارة عن الأثر الحاصل في نفس المتلقي، والذي يجوز التعبير عنه بالرّضى بعد استقباله للحجج المناسبة التي تحمله على الإذعان في قبول ما يطرحه المتكلم، سواء أكانت الاستجابة الإقناعية فعلا أم اعتقادا. وهناك من يعرّف الإقناع بأنّه: « العملية التي يؤثر بها الخطابُ في مواقف الإنسان وسلوكه، بدون إكراهٍ أو قسرٍ »[5].

إنّ العلاقة بين الحجاج والإقناع كعلاقة الأداة بالغرض، وعلاقة الوسيلة بالغاية، وما الحجاج والإقناع إلا عملية واحدة، تبدأ بالحجاج مطيةً لتنتهي بالإقناعِ هدفًا وغايةً، ومن الصعب بمكان التفريق بين المصطلحين إلا في تمييز الوسيلة عن الغاية، وفي درجة التوكيد، الذي ينعكس عليه سلبا وإيجابا؛ فكلما كان التوكيد مُستحكما كان الإقناع قويا مُذْعنًا.

وإذا كان الإقناع مرتبطا بالحجاج في الأصل، فإنّه ينبغي التمييز بين نوعي الحجاج: الحجاج الجدلي القائم على المغالبة النقاشية، التي ترمي إلى إلزام المخاطب بالحجةَ المُؤذنة بإذعانه لمقتضى مراد المُحاجج (المتكلم)، وهو الحجاج الذي يحاول فيه كل طرف تخطئة الطرف الآخر مستعملا البراهين المقدّمية المُفضية إلى نتائج حاصلية بقوة المنطق والصُّوَرية، ويسمى الإقناع الحادث عن هذا الحجاج الجدلي **تبكيتا**، أمّا النوع الثاني من الحجاج فهو الحجاج الخطابي الذي يحصل بين طرفين تتصف محاورتُهما بحرية اعتراض المتلقي، لعدم سوق الحجاج سوقا برهانيا منطقيا؛ بحيث يُكتفى في هذا النوع من الحجاج بالحجج المرنة والمؤثرة عاطفيا، كما قد تقترن هذه الحجج بحجج جاهزة غير صناعية في بعض أنواعها، أو كما يسميها أرسطو بالتصديقات الخارجية (كالشهود، واليمين).

وقد وضح كلٌّ من بيرلمان Perelman وتيتيكا Tyteca شديد العلاقة بين شكل الحجاج والغاية منه (الإقناع) في كتابهما (الخطابة الجديدة)، من خلال هذا النص المترجم، حيث إنّهما يدعيان أنّ : « إذعان العقول بالتصديق لما يطرحه المرسل أو العمل على زيادة الإذعان هو الغاية من كلّ حجاج؛ فأنجع حجة هي تلك التي تنجح في تقوية حدّة ذلك الإذعان عند من يسمعها وبطريقة تدفعه إلى المبادرة سواء بالإقدام على العمل أو الإحجام عنه، أو هي على الأقل ما تحقّق الرغبة عند المرسل إليه في أن يقوم بالعمل في اللحظة الملائمة »[1].

من هذا النص يتجلى كبير الرعاية التي توليها العملية الحجاجية للإقناع، إذ تعدّه « أثرا مستقبليا يتحقق بعد التلفظ بالخطاب، لينتج عنه القرار بممارسة عمل معين أو اتخاذ موقف ما سواء بالإقدام أو الإحجام. وبهذا فدورُ الحجاج يقف عند هدف تحقيق الإقناع »[2]، وعليه فالخطاب الحجاجي خطاب إقناعي، وليس كل خطاب إقناعي حجاجا؛ ذلك أنّ الفلك الذي يدور فيه الحجاج هو الخلاف القائم على مقدمات تفضي إلى نتيجة قابلة للدحض والاعتراض، ولكن ليس كل خطاب تواصلي هو خطاب حجاجي بالمعنى الاصطلاحي للحجاج، فقد يكون الخطاب التواصلي (غير الحجاجي) إقناعيا، ولكنه ليس خطابا قائما على تواصلٍ خلافيٍّ مهيكلٍ في مقدماتٍ اجتهاديةٍ تفضي إلى

---

(5)

(1)

(2)

نتيجةٍ قابلةٍ للاعتراضِ، وفي محصلة هذا الشرح تتلخص النتيجة التالية: كلّ خطاب حجاجي هو خطابي إقناعي، وليس كل خطاب إقناعي (أو يسعى إلى الإقناع) هو خطاب حجاجي.

كما ينبغي التفريق بين الإقناع (La persuasion) والاقتناع (La conviction) في هذا الصـدد، فبالإضـافة إلى ما تدلّ عليه مطاوعة الفعل (اقتنع) للفعل (أقنع)، ميّز كلٌّ من بيرلمان Perelman وتيتيكا Tyteca بينهما: من جهة أنّ الاقتناع هو غاية الحجاج، ويرتبط بما هو عقلي، على اعتبار أنّه إذعان نفسـي قائم على أدلّة عقلية، أمّا الإقناع فيرتبط بما هو ذاتي، بحيث يسـمح للمتكلم اسـتعمال خياله وعاطفته في حمل المتلقي على التسـليم بالشـيء، وعلى هَدْيِ هذا التمييز يفرقان بين نوعين من الحجاج بحسـب الجمهور المتلقي لهما : حجاج إقناعي (L'argumentation persuasive) يرمي إقناع الجمهور الخاص، وحجاج اقتناعي (L'argumentation convaincante) غايته أن يسـلّم به كلُّ ذي عقل [1]. ويوضـح شـانييه Chaignet هذا الفرق في قوله: « إنّ المرء في حالة الاقتناع يكون قد أقنع نفسـه، بواسـطة أفكاره الخاصـة، أمّا في حالة الإقناع فإنّ الغير هم الذين يقنعونه دائما »[2]؛ بمعنى أنّ الاقتناع هو صـوت العقل الذي يقود صاحبه إلى الإذعان، أمّا الإقناع هو محصلة نجاح الآخر (المتكلّم) في استجابة الأنا (المتلقي).

(1)
(2)